أمة التوحيد تتوحد

كان العرب في جاهليتهم قوى مبعثرة على رمال البوادي ومياه الأنهار يفني بعضهم بعضًا بالغزو والثأر حتى أراد الله الذي يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس أن يجعل منهم أمة وسطًا بين مادية اليهود وروحانية النصارى تصلح الدنيا بالدين وتصل الأرض بالسماء فألف قلوبهم على حبه، ووحد شعوبهم على رسالته، وأخرجهم من الجزيرة يحملون مشاعل الهدى وسيوف الحق ليقيموا الميزان ويحطموا الطغيان ويبينوا للناس معالم الطريق إلى الغاية التي تنتهي إليها الجماعة وتتم عندها الوحدة.

ونفذت إرادة الله على ما سبق من علمه وجرى في حكمه فتوحد الشتات والتأم الشمل وبلغت وحدة العرب والمسلمين غايتها من الشمول والقوة في عهد الرشيد حتى قال يومًا لغمامة مرت من فوقه: (أمطري حيث شئت فإن خراجك لي). وظلت هذه الوحدة شاملة قوية حتى خلافة المتوكل، ثم نجمت رءوس الشياطين من الأعاجم في الدولة تنشر الشعوبية والزندقة والفرقة فانقطع الخيط وانفرط العقد واختلط اللسان وتفرقت الكلمة وانشعبت الخلافة الإسلامية ثلاث شعب: شعبة في العراق ترفع العلم الأسود، وشعبة في مصر ترفع العلم ألأخضر. وشعبة في الأندلس ترفع العلم الأبيض. ثم جف الثرى بين الإخوة فتصارعوا على الحكم وتنازعوا على السلطان:

وتفرقـــوا شـــيعًا فكـــل مدينـــة فيهـــا أميـــر المـــؤمنين ومنبـــر

ثم دها العالم العربي الاستعمار الإنجليزي والفرنسي مع الحروب الصليبية ففرق ليحكم وقسم ليستغل وفجر ليستبد فنشأت العصبية الإقليمية لدرء خطره أو تخفيف ضرره، ولكنه كان قد استشرى واستضرى وتوقح، ففسد النظام واختل الميزان وذل الحق وأفلس المنطق وأصبح من فوق الطاقة ووراء الإمكان أن تناضل الأهواء المتفرقة الرأي الجميع، وأن ينازل الحق الأعزل عدوان الباطل المسلح، وكان لابد للعرب أن يعالجوا ضعف الفرقة بقوة الجماعة، وأن يتركوا بنيَّات الطريق إلى سواء الجادَّة.

وما كان للعالم العربي وهو يرى الخطوب تتواثب على جوانبه والنوازل تتفاقم في أحشائه أن تظل كل دولة من سادرة في مشاعب هواها تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات

زعمائها وهم يتكالبون على عرض الدنيا ويتواثبون إلى كراسي الرياسة كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك فهي لا تشغل بهما البال ولا تدير عليهما الفكر. وكأن غريزة حب الحياة التي جعلت من ضعاف النمل أممًا متحدة ومن بغاث الطير أسرابًا متعاونة لم تكن من غرائز أهله ولا من نحائز حاكميه !.

لذلك شعرت كل أمة من أممه في وسط هذه الكوارث السود التي تتفجر عليها من الداخل والخارج بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع ركبها الغرور والضلال ساعة من الزمن فنسيت أن قرنها الحاد لا يقوى على الناب الأعصل، وأن عيشها مقيدة مع الراعي خير من عيشها حرة مع الذئب، وأن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحادًا ألفه الله من صلة الدوم ونسب الروح ووحدة المصير من أن تبدئ اتحادًا صنعه الشيطان من جون بول وحسين، ومن العم سام وسعود، ومن السيدة مريان[1] وعشاقها من هنا وهناك، فإن هذا الاتحاد الذي ألفه الدينار والدولار والفرنك من دول ثلاث ومن أفراد ثلاثة لا يدوم إلا ريثما تأنف الشعوب وتغضب. والأنفة والغضب من شيمة الأبي الحر، والإباء والحرية أصلان في طبع العربي لا ينفكان عنه إلا بالقهر، والقهر وما يتبعه من الذل والفقر معناها الاستعمار، فمتى تحلحل كابوسه الفادح عن صدر الأمة العربية وجدت نفسها الضائعة وأدركت وجودها المتميز فنهضت تجمع أطرافها وتصل أجزاءها وتسأل عن صلة القربى الواشجة كيف قطعها الدخيل، وعن رقعة الوطن المتصلة كيف مزقها المستعمر، وعن هذه الأسماء المتعددة لهذه الأمة الواحدة كيف افتعلها الدخلاء والعملاء ليكون لكل اسم منهما دخيل في يده أصابع قرد، ولكل دخيل فيها عميل في أصابعه مخلب قط. وما هذه الثمرات المأكولة بالباطل إلا رزقي ورزقك ورزقه من أبناء هذه الأمة الكادحة المحرومة اقتطعها الملوك بالصوالجة واغترفوها بالتيجان ليقدموها قرابين غير مقدسة إلى آلهة الخمر والقمر والفسق والرزيلة.

* * * * *

(1) جون بول لقب إنجلترا، والعم سام لقب أمريكا، ومريان لقب فرنسا .

شعر بمخاطر الاستعمار ومخازيه ضباطنا الأحرار وتبلورت فيهم ثورة الشعب فدكدكوا حصونه عليه، وكبكبوا سماسرته صرعى من حواليه، وطهروا من أوزاره وآثاره مصر وسورية والعراق وحطموا من بينها الأسوار والحدود، وكسروا من حولها الأغلال والقيود، فتلاقى الإخوة وجهًا لوجه ولسانًا للسان ويدًا ليد، وفي أيديهم أعلام العباسية والفاطمية والأموية مصورة في علم واحد ذي ثلاث ألوان وثلاث نجوم يتذاكرون أماني الأخوة، ويتناشدوا أغاني الوحدة، ويتساقون كؤوس المودة مترعة من كوثر النيل ورحيق بَرَدى وسلاف دجلة، ويمثلون الأقطار الثلاثة في اتحاد عام يوحد فيه الاسم والرئيس والعلم والجيش والدستور والتعليم والاقتصاد والخطة والغاية فلا يبقى وراء ذلك كله إلا شئون محلية يختص بها إقليم دون إقليم، ويختلف فيها قطر عن قطر.

هذه الأقطار الثلاثة هي أساس الوحدة الشاملة وضعه الثوار على تقوى من الله ورضوان تقوم فوقه الجمهورية العربية المتحدة بأقطارها الثلاثة عشر.

ولو علمت أن كل قطر من هذه الأقطار الأساسية الثلاثة قد قامت فيه خلافة وتمكنت فيه دولة وازدهرت به حضارة، وأن الأقطار التسعة الباقية إنما كانت أقمارًا توابع لها تدور في فلكها وتجري لمستقرها، وأن الحوائل العارضة التي كانت تحول بين الفرع وأصله، وتفصل بين الجزء وكله، قد زالت أو كادت، علمت يقينًا أن الوحدة في الوطن ستتم وإن بعدت في بعض أرضه الشقة، وأن النجوم الثلاثة عشر ستبزع في العَلم وإن تراكمت في بعض سمائها السحب.

* * * * *

إن الوحدة السياسية المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول. وإن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان والسلطان يعتريه الوهن فيزول. أما الوحدة الناصرية المقترحة فباقية نامية لأنها تجديد للوحدة المحمدية؛ فهي باشتراكيتها وحريتها وديمقراطيتها مظهر للإسلام مطبقًا بالفعل، منفذًا بالقانون، مؤيدًا بالسلطان. والاشتراكية في الرزق والحرية في الرأي والديمقراطية في الحكم ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل، وألا تستبد

فتطغى، وألا تحكم فتتحكم. والأثرة والطماعية والطغيان والحسد كانت وما زالت علة العلل في فساد الزمان وهلاك الأمم.

* * * * *

بعد قرابة ألف سنة من تمزق الوحدة المربية بين الترك والفرس والمغول والكرد والجركس والأسبان والعثمانيين والفرنسيين والإنجليز والطليان يعود التراث المحمدي إلى أهله ومعه ما ضيع الجهل والفقر والانحلال من كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة فيسعى بعضه إلى بعضه، وينضم قاصيه إلى دانيه، ويشعر ثمانون مليونًا من العرب يعيشون بين المحيط والخليج بأن لهم كيانًا طبيعيًا تميز بالجنس واللغة والدين والتاريخ والموطن والمجد والثقافة، فمن حقهم أن ينزلوا في مكانهم من صدر الوجود، وأن يشاركوا بإمكانهم في سياسة الدنيا، وأن يقولوا للكتلتين الرأسمالية والشيوعية إن الكتلة العربية هي التي تملك غرس الوئام في النفوس وإقرار السلام في العالم، لأنها تقوم على الإيمان المحض، وتنزل في خير مكان من الأرض، وتهيمن على الموارد الأولى في الاقتصاد، وتدين بالأديان السماوية المثلى للاجتماع، وتشرق أعمالها في الصفحات العظمى من التاريخ، فافسحوا لها في الطريق، ومدوا إليها يد الصديق، وأريحوا أنفسكم من الكيد لها والائتمار بها، فقد جربتم معها كل سلام ما عدا سلاح الحق فجربوه ولو مرة.